الأداء والتعبير الفني في معركة المصير

بقلم محمد مبارك

يحتل الادب ، باعتباره اعمق اشكال الوعي الاجتماعي واغنى نشاطات الانسان الحية موقعا متقدما من حركة المجتمع البشري . اذ به استطاع الانسان ان يستكشف ابعاد ماضيه وحاضره .. ويستشرف آفاق غده ، فيصير من كل اولئك الى امتلاك ضرورات تحركه وصيرورته في مختلف مراحل مسيرته التطورية . والحقيقة ان الادب كان وما يزال يقوم مقام المدفعية الثقيلة في معارك الانسان الحاسمة . فكما ان هذه تمهد السبيل امام القوى المتقدمة في الحرب ، كذلك يمهد الادب الطريق امام التغيرات الكبرى والنقلات النوعية البارزة في تاريخ الانسان ، ولعل مثال الثورة الفرنسية الاولى عام ١٧٨٩ .. والثورة الاشتراكية الكبرى في روسيا عام ١٩١٧ ، ما ينفك يحتفظ لنا بكامل حيويته وطاقته في هذا الشأن . فلقد ولدت هاتان الثورتان حلما ووعيا في الآثار الادبية التي سبقتها قبل ان يتوفر للوعي والتحرك السياسي ان ينقلهما من حقل الضرورة التاريخية المحضة الى مجال الفعل والتحقق العياني الملموس .

وكذلك هو الامر بالنسبة للادب اليوناني القديم ، اذ استطاع بما خلق وابدع من آثار في الملحمة والشعر والمسرحية ، ان يصادر على ضرورات التحول العظيم في بنية المجتمع الاغريقي بل وان يتقدم انطلاقة فكره الرائعة ، فكان بذلك سبب ذلك التحول واساس تلك الانطلاقة . وفي ذهني .. ان ادبنا العربي قبل الاسلام هو الآخر قد صار بما جاء به من قيم روحية ومعايير في بناء القصيدة واساليب التعبير واللغة التي تمثل ابعاد الثورة الاجتماعية الكبرى التي عاشتها مجتمعنا العربي في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي . ذلك ان انصهار المجتمعات القبلية المحتربة في وحدة قومية شاملة، وامتلاك ناصية الحضارة واسباب التمدين والقوة ، ما كان للمجتمع العربي ان يبلغها يومذاك ، لولا ان بسط الادب امامها السبيل فيما حقق من وحدة اللغة وتماثل المشاعر والاحاسيس الفنية .. وتقارب الافكار والاهداف بين ابناء الامة الواحدة .

ويوم كانت الضرورة تقضي بانتقالة المجتمع العربي الى مرحلة جديدة من التنظيم الاجتماعي واساليب التفكير والفهم ، كان الادب هو السباق الى الارهاص بمتطلبات تلك الضرورة ورسم الطريق امامها في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين .

على انه اذا كان للادب ان يتمثل الثورة فيما ويرهص بها ضرورة وقدرا ، فيسبق بذلك حركات التحول الاجتماعي ويمهد لها ، فانه ليستجيب الى دواعي الثورة فيما يتبع من اساليب ويبتدع من اشكال التعبير والبقاء الفني . ومن ثم وجدت لكل مرحلة تاريخية اشكالها الابداعية الخاصة وانماطها التعبيرية التي تنفرد بها دون غيرهما . ولعل تعاقب الاصناف الادبية وتطور صيغ الابداع يبرر الذي ذهبنا اليه فمن الغناء الى الملحمة .. ومنها الى المسرحية . ولم تولد الرواية الا في عصر متأخر نسبيا ، وان سبقت بما يحسب عليها مما جاءت به عصور متأخرة ايضا كالرومانس والبكارسك . ولا نحسب ان حدود موضوعنا تتسع لنا هنا فنتبسط في الحديث عن اسباب هذا التعاقب وضرورات ذلك التدرج في ولادة الاصناف الادبية المتعددة بله تطور صيغ التعبير التي يشتمل عليها كل صنف او نمط . وانما قصارانا ان نقرر انه بدون خلق انماط ادبية جديدة وادخال تجديدات شكلية على الانماط الموجودة بالفعل ، لا يمكن للادب ـ على ما يرى الشاعر والكاتب المسرحي الالماني البارز برتولف بريخت ـ « ان يقدم موضوعات جديدة او وجهات نظر جديدة الى الفئات الجديدة من الجمهور » .

ومن هنا .. كان غير ممكن منطقيا وتاريخيا لابي نواس او المتنبي مثلا ، ان يكتبا بذات الاسلوب الذي خلص اليه امرؤ القيس او النابغة، كما انه غير ممكن منطقيا وتاريخيا ان ينبري احدنا اليوم ليعيد علينا اصوات الغابرين من اسلافنا في حقل الابداع الادبي بل ان ذلك ليستحيل على من يحاوله . فما لوعينا الاجتماعي ولا لمظاهر نشاطنا المتعددة ان تستوعبها ، اليوم صيغ الماضي واشكاله الابداعية محال . فاسلوب المقامة الذي طلع علينا في مرحلة متقدمة من مراحل تطورنا الحضاري ليكون من بين اكثر وسائل الاستيعاب الجمالية قدرة على التصوير او التعبير الفني ، لا يمكن لكاتب القصة القصيرة المعاصر ان ينسج الرواية المسرحية من اساليب الماضي وقوالبه وصيغه وانماطه.

بيد ان هذا لا يمنع ان تتصل مدارس الابداع وانماط التعبير الفني .. فتعبر بآثارها ومعاييرها وقيمها القرون والاحقاب . وانما الذي توخيناه من موضوعاتنا آنفة الذكر ، ان نقرر استحالة جمود الصيغ وتكلس الاساليب حتى ضمن النمط الادبي الواحد . فاذا كان للغناء ان يتصل في عطائنا الشعري .. فباشكال متجددة واساليب متطورة تباعد ما بين شوقي والجواهري وابي ريشة مثلا ، وبين ما ورثناه من آثار طرفة وابي تمام والمتنبي ، على حميم الصلة ووثوق الرابطة الروحية بين هؤلاء وهؤلاء .

ولعل ظاهرة الشعر الحديث وما انتهى اليه من انجازات في شكل القصيدة العربية افضل ما يؤكد ويحقق لنا مضمون المعطاة القائلة بضرورة ملاءمة الاساليب والاشكال التعبيرية لمتطلبات كل مرحلة تاريخية.

اذ صار بلغة الشعر الى ما يجمع بين مقتضيات التوحد العربي وحاجة الانسان الاعتيادي في الشارع ، والحقل ، والمصنع الى واسطة في الاتصال والفهم لا ترتفع عن موجوده من المفردات والتراكيب اللغوية المتداولة .. فتمثل بذلك البعد الجماهيري للثورة العربية المعاصرة .

وصادر على ضرورة تكريس كل اسباب التماثل والوحدة التي تشد المجتمعات العربية الى بعضها وترسم آفاق تطورها . وليس هذا فقط.. وانما استطاع ، بما انتهى اليه من ثورة في عروض الشعر العربي ـ حيث انتقل بموسيقاه من رتابة الايقاع الى غنى التعدد النغمي وحيويته محققا بذلك ما يسمى بلغة الموسيقى بالهارموني ، وبما صار اليه في مجال التصوير والايحاء والرمز ، وتعدد الاصوات داخل القصيدة ، وخلق المناخات الذهنية والحسية ، استطاع بكل هذا وذاك ان يستجيب لمتطلبات العصر وما وفق اليه من غنى وتعقيد وتداخل وتركيب في رؤياه ووسائل انتاجه واساليب تطوره التكنولوجي .

ومهما يكن .. فلقد كان لعصرنا ، شأن غيره ، اساليبه الخاصة في التعبير وانماطه المحددة في الابداع الفني والادبي ، كما كانت له بلاغته ولغته ومنطقه الخاص في بناء القول وتصوير الظاهرة ورصد الحدث .

فالى اي مدى استطاع ادبنا العربي المعاصر أن يتمثل كل هذه الخصوصيات ؟ وهل استطاع فيما تمثل منها ان يرصد ما تمتاز به الثورة الاجتماعية التي نعيشها فيستكشف ابعادها ويستشرف افق تطورها .؟

للاجابة على ذلك ، ارى ان نتلمس بعض ابعاد الثورة العربية المعاصرة ونقف على جانب من موجود وضرورات تحركها وصيرورتها العامة .

ان ما نعيشه من ثورتنا مجتمعا ناميا وامة ناهضة، لا ينحصر في اطار حل التناقضات القائمة بين تطلعات قوانا الانتاجية وطموحات جماهيرنا في التقدم والبناء وبين العلاقات شبه الاقطاعية ـ شبه الرأسمالية التي جاء بها الاستعمار الاجنبي لتثقل خطانا وتمنع انطلاقتنا الحرة ، وانما يجوز ذلك الى مهام بالغة التعقيد والتداخل فمن جهة نجد ان كل قطر يقف على ابواب تحرره السياسي ملزم بتحرير قواه الانتاجية مما تفرضه عليه تلك العلاقات المتخلفة من قيود ، ثم ان يتابع عملية تحرير قواه هذه ليصل بها الى حيث يقيم علاقات انتاج متقدمة تتجاوز به مرحلة الانتاج الرأسمالي الى الاشتراكية من حيث ان امكانات التطور غير المعقلن لا قبل ، لها بما تتطلبه ضرورات التنمية والبناء المادي من مهام جسيمة واعباء ثقيلة في ظل علاقات سوقه غير الانتاجية بحركة الرأسمال الاحتكاري العالمي .

ومن جهة اخرى .. نرى ان عملية متابعة هذا الخط في التطور لا يمكن لها ان ترضي مصالح قطاع واسع من وجود الرأسمال الوطني في الداخل . اذ يفوت عليه هذا المنهج في التطور فرصا واسعة للربح ـ اضافة الى ما قد يجره عليه ذلك من متاعب في حالة تحرير قوة العمل ، واقامة الجماعية في المدينة والريف مما قد يقود الى تصفيته ضرورة واثارا في عملية الانتاج الاجتماعي .. هذا الى ما قد يستثيره ذلك من اسباب المقاومة والعنف لدن فصائل عديدة من اصحاب الرساميل المرتبطة بملاك الارض من جانب وبتحركات الاحتكارات الدولية ومخططاتها من جانب اخر ، بله قوى هذه الاحتكارات التي ظلت على امتداد عقود طويلة تحتفظ بسيطرتها الاقتصادية والسياسية على حركة السوق الداخلية .

ثم ان هذا يستلزم فرزا حادا للقوى الطبقية في المجتمع واعادة لترتيب اصطفاف هذه القوى على اسس جديدة ، وتحديد جديد لمفهوم الشعب قد لا يتسع لغير قوة العمل ومن يظاهرهم وينتصر لقضاياهم من فلاحين وحرفيين ومثقفين ثوريين . من هنا يأتي البعد الجماهيري للثورة العربية المعاصرة ، حيث ليس لغير جماهير العمل وحلفائهم ان ينهضوا بها قضية ومسيرا .

هذا الى ان وحدة التراب العربي وتكافل القوى والطاقات العربية واقعا وقضية يلزمنا هو الاخر بضرورة العمل على خلق كل ما من شأنه ان يؤكد وحدة هذه الامة التي شاء لها اعداؤها ان تكون اقطارا متباعدة ، والا فلن نحصل على غير عبث باطل مما قد نحشده من قوى وطاقات في بناء هذا القطر العربي او ذاك .

وهنا .. لا بد من ملاحظة ان وجود البترول في الارض العربية ، بهذه الغزارة وتلك الاهمية الاستثنائية التي تفرد له في حساب الاستراتيجية العالمية ، لم يضاعف من جموح الاحتكارات الدولية ونشبثها بالاحتفاظ بالارض العربية في محيط استثمارها ومخططاتها التوسعية فقط ، وانما اكسب ابعاد الثورة العربية في مختلف مناحي تحركها وتموضعها عمقا وحدة لم تألفها ثورة معاصرة ومن ثم ، فلا ندحة لمن يعرض لرصد قضايا الثورة العربية من ان يأخذ باعتباره وجود البترول، والا فقد يشط شططا بعيدا في رصده وتقديره في هذه الارض على مختلف الاصعدة .

ان قيام قاعدة الامبريالية العالمية والصهيونية ـ اسرائيل ، في قلب الوطن العربي مثلا ، ان هو الا بعض نتائج وجود البترول في هذا الوطن المبتلى بل ان تجزئة هذا الوطن الى دويلات متنابذة ومتناحرة، واقتطاع اجزاء عديدة منه من قبل الانظمة الرجعية في المنطقة ، هي الاخرى يمكن أن تكون بعض مردود توفر البترول في هذه الارض.

ولذلك .. فيتعين علينا ان نشحذ يقظتنا ونزيد من حاسة شمنا، لنستدل على مواضع البترول من هويات العديد من النزوات الغريبة والمعادية للانسان التي يعج بها وطننا العربي هذه الايام ، سواء في السياسة ام في الادب ذلك ان اجهزة الاحتكارات وعملاءها في الثقافة والفكر لا يمكن ان يكونوا بعيدين عما يجري في ارضنا العربية من صرعات او دعوات ادبية او سياسية .

وبعد .. فهذه هي ابرز معالم الثورة العربية المعاصرة . فاين يقع منها ادبنا العربي المعاصر ؟ والى اي مدى استطاعت وسائله واساليبه في الاداء او التعبير الفني ان تستوعبها فضية وتطرحها قيمة ؟

اعتقد ان ادبنا العربي المعاصر ، اذا اسقطنا من حسابنا الاصوات الدخيلة والتيارات الرجعية التي تحاول ان تجد لها منسربا في ساحة استطاع الى هذا الحد او ذاك ، ان يتمثل الثورة هدفا وينتظم صفوفها قوة ووعيا . وان تكون اداتها الفاعلة في اكثر من موقف او حقل. على انه في ذلك لم يشأ ان يقتصر على الاستجابة لها مضامين وافكارا ومواقف ، وانما جاز ذلك الى استيعابها فيما طرح من اشكال وصيغ ادبية . فكان النموذج الاساسي الذي يدور حوله هو البطل الايجابي الذي يرى خلاف البطل الوجودي ، في الاخرين مددا له .. واستمرارا لقضيته ودوره في الحياة ..

تبسم الهواة المجنواة ... تكشف عن فمها الفاغر
لان الحياة رمت نحوه ... صدى سابح خلفه ماخر

.. او هو المقاتل في سبيل المبدأ ، الذاب عن حوض الامة ، الجواب الافاق الذي لا يفتأ يبحث عن الحقيقة وبرود المجهول ويتعشق كل ما هو خير وعادل وجميل . واذا كان لمثل هذا البطل ان يمزق اهابة القلق او الاشفاق ، فازاء قضية يدفع عنها او مهمة يحرص على ادائها . واذا كان له ان يمتلكه مشاعر الغربة ، فازاء واقع يرفضه ويسعى الى تصفيته . هذا ما درج عليه الشعر بفنونه المتعددة ... وتقدمت به ضروب الادب الاخرى من القصة القصيرة حتى الرواية والمسرحية العربية .

ولم يقف الامر عند طرح النموذج الايجابي ، وانما فات ذلك الى معالجة وتطوير وسيلة الادب الرئيسية ، فاقترب بها ـ على ما قدمنا ـ من لغة رجل الشارع والمصنع ، والحقل ، دون ان ينتهي بها

الى ما يكرس واقع التجزئة .. ويبرر نزعات الانفصال والتأفلم الضيقة ، متمثلا في ذلك بعدي الثورة العربية المعاصرة : البعد الجماهيري الذي يشكل جوهرها وقوة الدفع الذاتي فيها والبعد القومي الذي يحدد الاطار الذي تتحرك داخله والافق الذي تسعى اليه.

ولعل تعدد الانماط الادبية وظهور اشكال فنية جديدة ، هي ابرز ما وفق اليه ادبنا العربي المعاصر في استجابته لدواعي الثورة العربية المعاصرة ومطالبها التاريخية المرسومة فلاول مرة يخرج ادبنا العربي عن آفاقه الفنائية الثرية الى حيث فنون الادب الموضوعي التي لم نألفها بالامس كالرواية والمسرحية ، والقصة القصيرة ، بل ان المسرحية اليوم ، لتكاد تزحم الشعر ميدانا واثرا في اكثر من ساحة عربية . وكذلك هو شأن القصة القصيرة ،والى حد ما الرواية .

ودونما ريب ان هذا التعدد وذلك النوع في اشكال التعبير، انما هو من مستلزمات الثورة المعاصرة ، حيث لم يعد الشعر وحده ـ بما يتسم به من ذاتية في الرؤيا والتعبير ، قادرا على تمثل ابعادها واستيعاب مضامينها المعقدة بروح موضوعية خلاقة . ومن ثم وجدنا حتى الفنائية في الشعر تكتسب ابعادا درامية او روائية عند عدد من افضل شعرائنا الجدد .

ان عصر الصناعة والتكنولوجيا الرهيبة ، يتطلب انماطا في التفكير واساليب في تمثل الحقيقة والتعبير عنها ، لا يمكن للصيغ القديمة في التأمل الذاتي المنعزل والتصور السكوني او الثابت : ان تنسجم معها بحال . ولذلك جنحت وسائل التعبير وصيغ الاداء الفني والذهني الى الموضوعية في الرصد والتركيب في استيطان الظاهرة او الحدث وهو نام تحرك فاعل في محيط علاقاته المتعددة وارتباطاته غير المحدودة .

فاذا كان الاخذ باسباب الصناعة والبناء التكنولوجي والعلم ،هو ما يلزمنا للظهور على كل عوامل التخلف والضعف والتبعية والتجزئة اذ ليس ثمة من سبيل غير ذلك في حدود امكانات عصرنا التطورية، فان اتساع ساحة الادب العربي لفنون الادب الموضوعي والانتقال بالشعر الى حيث غلبة الطابع الدرامي او الروائي ، لا يقتصر على استيعاب ضرورات التحول الثوري ومطالبه في حقل الابداع الفني والادبي وانما يجوز ذلك الى النهوض بمهمة اعداد الانسان العربي لما تقتضيه الثورة من موضوعية في الرصد وتركيب في الرؤيا وعمق في الفهم .

من هنا كان اسهام ادبنا العربي المعاصر في المعركة المصيرية التي نخوضها ضد قوى العدوان والغزو الامبريالي ـ الصهيوني ، فباغناء وعي الانسان العربي وحمله على الرؤيا التركيبية والرصد الموضوعي والاستيعاب الحي للحقائق والاحداث اليومية ، يقوم الادب بتهيئة انساننا العربي المعاصر لمعركة المصير وهو في هذا يسبق الوقائع والتحولات المادية في الارض العربية ، متمثلا في ذلك روح العصر ومطالب التمدين الحديث .

وقد يجدر بنا ـ ونحن بصدد الحديث عن الادب ووسائله التعبيرية في معركة المصير ، ان نعرض لما تمج به الارض العربية اليوم من تيارات ادبية متضاربة ، هي في مجملها اصداء متفاوتة بما جرى ويجري في اوروبا في اعقاب الحربين العالميتين المنصرمتين .

ولئن كان من غير الطبيعي او المنطقي ان تحول دون انتقال الافكار وتلاقح الثقافات والتجاريب ، فانه من غير المنطقي ايضا ان نترك الحبل على الغارب ازاء ما يستجد ويشيع من مواقف الفكر والادب ، فلا نرقب ما يجري في هذه الارض المبتلاة بتآمر اعداء الانسان من مزادات محمومة لقتل روح هذه الامة وتشويه فكرها وتراثها ، بقصد اشاعة روح التواكل واليأس بين صفوفها واغتيال كل بادرة واعدة او احتوائها ،ليسهل بذلك احكام القبضة على مقدراتها وامتلاك ازمة قيادها .

ذلك ان هذه التيارات ـ على فرض حسن النية ـ تتوزع بين عدمية لا تؤمن بشيء او تقر بقيمة ، ونهلستية تكفر بكل شيء ولا تقف عند حد في رفضها وجموحها الفوضوي ، وميكانيكية تنحط بالانسان ووعيه الى درك سحيق من جبرية عمياء يقع منها الانسان موقع الظاهرة الفيزيقية من قوانينها حيث تتصرف به وبوعيه قوانين التداعي بشكل موغل في العبث واللانظام الى غير هذه وتلك من الدعوات الشكلية التي تنفي الانسان وتلغي وعيه وتنكر عليه قدرته على الفهم وطاقته في الاختيار او ممارسة الحرية التي كتب عليه ان يكونها في كل ما يقوم به او يصدر عنه .

وتلتقي كل هذه التيارات والدعوات ، بالاضافة الى مواقف التشكيك بقدرات الامة والكفر بتراثها وانسانها العظيم على تأليه الشكل وانكار ما للمضمون من قيمة في بناء الاثر الادبي او الفني ، حتى لقد ذهب احدهم الى الزعم بان مهمة الشاعر هي ان يفجر الثورة داخل اللغة لا في المجتمع اذ ان هذه مهمة السياسي لا الشاعر .

والحقيقة ان الدعوة الى فصل الشكل عن المضمون في الادب والفن ، ليست بالجديدة وانما تمتد بعيدا في رحم الماضي لتصل الى الفيلسوف الالماني عمانويل كانت (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) حيث ذهب اواخر القرن الثامن عشر متساوقا مع فلسفته في الوجود في ذاته ولذاته ـ الى اسقاط المضمون قيمة في التعمل ، واقتصر على الشكل زاعما ان الخلق او التجديد في الفن والادب انما يقوم عليه ، وليس للمضمون ايما علاقة في ذلك ولقد اخذت عنه هذا الزعم كل المدارس الشكلية Formalism التي زخرت بها اوروبا اواخر القرن التاسع عشر ، وقبيل الحرب الكونية الاولى ،ثم في اعقاب الحرب الكونية الثانية .

بيد انه اذا اتسعت سوق اوروبا لمثل هذه الدعوات ، فلانها كانت تعكس جانبا من حياتها القاتمة وتدفع عن قواها المفرقة في العدوان والنهب الاستعماري . ذلك أن الدعوة الى تأليه الشكل وفصله عن المضمون ،انما تستهدف اساسا اسقاط المضمون ،ومن ثم اسقاط الفن والادب باعتبارهما احدى اخطر واقدر وسائل الانسان للاتصال بالواقع وامتلاك ضرورات تحركه وصيرورته فهي اذن ـ محاولة لانتزاع ابعد اسلحة الانسان والثورة آثارا واوفرها في معارك الانسان الفاصلة .

اما بالنسبة لنا .. فليس لمثل هذه الدعوات ان تنسجم ومطالب المعركة القاسية التي تخوضها جماهيرنا ضد قوى العدوان والغزو في مختلف اقطار العروبة ، وخاصة في فلسطين المحتلة حيث تقف طلائع الثورة الفلسطينية المقدامة وجها لوجه امام اعتى واشرس استعمار استيطاني عرفه تاريخ الانسان الحديث ذلك ان محاولة تعطيل الادب ، وهو طاقة عظيمة في معركتي التحرير والبناء لا يمكن لها الا ان تخدم اعداء الامة ، والا ان تقود الى تكريس كل اسباب التخلف والضعف .

من هنا كان حقا لنا ان نقف من هذه الدعوات موقف المرتاب الحذر بل والرافض كذلك . بيد ان هذا لا يعني ان ننتصر لقوى الردة الادبية والمدارس التي تحاول ان تحجر الزمن فتقف الفنون والاداب عند قيم الماضي واساليبه . اذ بهذا سنكون كمن انتقل بمواقفه من اليمين الى اليمين . في حين اننا ملزمون بان نتلمس مواقعنا حيث يكون الخلق والتجديد الاصيل في الادب والفن ، والا فمالنا ان نزعم القدرة باعتبارنا ادباء وفنانين ،على اعادة صياغة الانسان العربي المعاصر .. وترسيخ علاقته بالمجتمع والطبيعة على اسس جديدة من الفهم والاكتمال الذاتي والوحدة .

ان معركة المصير تقتضينا ان نوقظ في الانسان العربي كل عناصر القوة ونوازع التحدي الهادف والرفض الثوري ، وان نرتفع برصدنا واستيعابنا للظاهرة او الحدث الى مستوى التعقيد الذي صارت اليه الآلة الحديثة والفهم التركيبي الذي انتهى اليه العلم ، وان نعيد بناء علاقة الفرد بمجتمعه على اسس جديدة راسخة من الفهم

والمشاركة الايجابية والحب ، وان تفجر اللغة اليومية ينابيع العطاء الفني والادبي الغني دون ان يقودنا ذلك الى تكريس واقع التجزئة باعتماد اللهجات المحلية لاغراض آنية ومطالب عابرة .

ان احتدام الصراع بين جماهيرنا الكادحة واعدائها من امبرياليين وصهاينة وعملاء يتطلب منا ان ندخل بالكلمة المبدعة ميادين المعركة فنقاتل بها كما يقاتل الجندي ببندقيته ، والا فليس لما نكتب ونقول ان يكون غير بطر عابث وترف لا مبرر له .

واذا كان للانسان ان يتشكل بهذه الصورة او تلك من خلال وعبر شبكة علاقاته وارتباطاته بما ينتظمه ويحيط به من ظروف واحوال مادية وروحية ، فان انساننا العربي هو اليوم من موجوده الاجتماعي وملابسات ثورته السياسية ومطالب صيرورته اليوم وغدا ، لا يمكن له الا ان يكون ايجابيا صلبا في مواقفه منفتحا على الاخرين غير منغلق على نفسه فيما يأتيه من فكر او حس ، والا فماله ان يتمثل جوهره الفاعل ويتميز عما حوله من موجودات . ومن ثم .. فما يعيشه العربي من مشاعر الاغتراب والتوحد ليس لها ان تفضي الى انغلاقه على نفسه وانحباسه في شرنقة ذاته الضيقة وهمومه الخاصة ، وانما لا بد لها ان تكون اساسا ثابتا ومنطلقا مكينا لرفضه وتمرده وثورته بكل ما يمنعه ان يمتلك انسانيته .

واذا كان للادب ان يكون حقا وفعلا قوة مغيرة في حياة الانسان والمجتمع فانه ملزم بأن يستوعب ذلك بتقدم بنماذج وقيم ومعايير تكرس كل ما من شأنه ان يرتفع بوجود الانسان العربي الفرد التي سمت الثورة ... ويتخذ من معطيات محيطه وبيئته المتفجرة مادة حية لما يبدع من آثار تحتاج اليها الارض العربية في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخها النضالي العنيد .

على ان هذه المهمة ان توفر للادب الثوري ان ينهض بها ، فان يتوفر للمدارس الشكلية ان تصير منها الى شيء اللهم الا ان تسهم اسهاما فعليا في تعتيم الرؤيا وتأصيل كل مسفح زائل او عار مريض. ذلك ان ليس لهذه المدارس التي تحط بالانسان الى حضيض الظاهرة الفيزيقية غير الحية ولا الواعية ، ان تعبر عن واقع الاغتراب الذي يعيشه العربي من محيطه ومجتمعه مثلا بما ينفيه ويجتث مسبباته . ذلك ان هذه المدارس انما درجت منذ ان كانت ـ على اعتماد الاغتراب وما تتركه في الفرد من احاسيس حادة . وهواجس مضطربة اداة في تشويه الفرد وقتل نوازع المقاومة والفصل لديه وذلك عن طريق تأجيج كل مشاعر النفرة والحقد والبغضاء واللامبالاة .. وبوضع الفرد، بوجوده من كل اولئك ، مقابل المجتمع وعلى الضد منه ، وبالوصول بحالات التمرد والرفض الى ضرب من المشاكسة العابثة والعدمية المحضة.

ومهما يكن .. فانه قد يطول بنا الحديث في هذا الشأن ..وقد يضطرنا ذلك الى ان نضرب بعيدا في العديد من ملابساته وقضاياه ولا احسب ان المقام يسمح بذلك . ولذلك رأيت ان نقف عند هذا الحد من الرصد ، تاركين لفرصة اخرى ان يتسع لنا فيها مقام فنقول الذي نراه في موضوع استيتكي يتشعب فيه الاجتهاد ويتعدد الرأي حتى ان المرء لا يكاد يقف في ذلك على رأي واحد . على ان الثورة العربية المعاصرة ـ على ما قدمنا ـ استطاعت ، شان كل الثورات ان تفرض النمط والصيغة التي تراها لادبها .. فتأتي في كل مرحلة بما يلائمها من الادب اداء ومضمونا . ومن ثم كان هذا التنوع في الاصناف الادبية واساليب التعبير الفنية التي تزخر بها ساحة الادب عندنا اليوم .

الجحيم

رواية لهنري باربوس

ترجمة جورج طرابيشي

يعتبر كولن ولسن بطل رواية « الجحيم » لهنري باربوس مثلا على اللامنتمي النموذجي في الادب الحديث ، ويروى ان هذا البطل يلجأ الى غرفته في الفندق ليغلق بابها ويعيش ليرقب الآخرين من ثقب الباب ، وتنطلق أفكاره بصورة غامضة عن حب قديم وما فيه من ملاذ جسدية ، الى الموت « وهو أهم الافكار اطلاقا » ، ويراقب من مكانه الغرفة التالية من ثقب في الجدار ليرى امرأة تتعرى فتلهب جسمه بسياط الشهوة . انه يرى أكثر وأعمق مما يجب ، وهو لا يرى الا الفوضى » .

والحق ان باربوس يريد أن يقنعنا بأن اللامنتمي انسان لا يستطيع الحياة في عالم البرجوازيين المريح المنعزل أو قبول ما يراه ويلمسه في الواقع ، لان البرجوازي يرى العالم مكانا منظما تنظيما جوهريا وتمنعه دقائق حياته اليومية من الاهتمام بعنصر القلق المرعب الذي يحيط به . أما اللامنتمي فانه لا يرى العالم معقولا ولا منظما ، ويقذف بمعانيه الفوضوية في وجه دعة البرجوازي وهو يحس الكآبة العميقة ويشعر بأن الحقيقة يجب ان تقال مهما كلف الامر ، والا فلن يكون الاصلاح ممكنا ...

منشورات دار الآداب

الثمن ٤٥٠ قرشا